المعنيين بأن تستعمل ألفاظ بأعيانها لظاهرها معنى ولباطنها معنى آخر . كما يكون هذا النوع من اللحن محتاجاً دائماً وأبداً إلى فطنة السامع وذكائه بحيث يكون دائماً وأبداً قادراً على اقتناص ما خفي فهمه على الآخرين .

ومثال اللحن في هيئة العدول عن مألوف الكلام ومعتاده ما ذهب إليه ابن عباس في معنى لحن القول في الآية الكريمة التي تتحدث عن المنافقين بأنه : «هو قولهم : ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون : ما علينا إن عصينا من العقاب»(١) . وقال أبو حيان(٢) : «كانوا يصطلحون فيما بينهم من ألفاظ يخاطبون بها الرسول مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح وكانوا أيضاً يصدر منهم الكلام يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم عند النصر : إنّا كنا معكم وغير ذلك كقولهم لئن رجعنا إلى المدينة ، وقوله إن بيوتنا عورة» وبما أن هذا النوع من الكلام يصدر من المنافقين وهو من لحن القول فالآية الكريمة تشمله بطبيعة الحال .

أما اللحن في هيئة العدول بالكلام ذاته عن مألوف معناه بمعنى أن تميل بكلامك إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية وأن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره فمثاله قوله ﷺ وقد بعث رجلين إلى بعض الثغور عيناً فقال لهما : «إذا انصرفتما فالحنا لي لحناً ، أي أشيرا إليّ ولا تفصحا وعرضا بما رأيتما . أمرهما بذلك لأنهما ربما أخبرا عن العدو ببأس وقوة فأحب ألا يقف عليه المسلمون(٣)» يقول ابن هشام في السيرة النبوية بعد أن بلغ المصطفى ﷺ نبأ نقض يهود بني قريظة عهدهم له ﷺ(٤) : فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٣ .

(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٨٥ .

(٣) اللسان «لحن» .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ ـ ٢٢١ .

الأوس وسعد بن عبادة بن دليم ، أحد بني ساعدة .بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا . أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس . وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس . قال فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ . وقالوا : من رسول الله ؟ . لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه . وكان رجلاً فيه حدة فقال سعد بن عبادة . دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر . أبشروا يا معشر المسلمين» . ومن هذا القبيل قول القتال الكلابي :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب(١)

وقول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري :

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزناً
منطق رائع وتلحن أحيانـ ـاً وخير الحديث ما كان لحناً(٢)

يريد أنها تتكلم بشيء وهي تريد غيره وتعرّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها كما قال عز وجل : ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ أي فحواه ومعناه (٣) . وقد جاءت رواية البيت في هذه الصيغة :

منطق صائب وتلحن أحيا ناً وخير الحديث ما كان لحنا

«. . . قال عثمان بن جني منطق صائب أي تارة تورد القول صائباً

---

(١) اللسان «لحن».
(٢) اللسان «لحن».
(٣) اللسان «لحن».

مسدداً وأخرى تتحرّف فيه وتلحن أي تعدله عن الجهة الواضحة معتمدة بذلك تلعباً بالقول وهو من قوله ﷺ : ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته أي أنهض بها وأحسن تصرفاً[1] . ففي الحديث أن النبي ﷺ قال : إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، أي أفطن لها وأجدل . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار . قال ابن الأثير اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وأراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة وأفطن من غيره . واللحن بفتح الحاء الفطنة[1] . ويقول يوهان فك[2] بشأن لحن القول في الآية الكريمة : «ولا يوجد أفصح ولا أبلغ ولا أنصع ولا أبين في إصابة المحز من ذلك التعبير «لحن القول» في وصف طريقة التعبير المعسولة التي لا يبدو في ظاهر جرسها سوء والتي يرمز بها أعداء محمد ﷺ إلى معان يفهمها إخوانهم في الرياء والنفاق» . «وقيل كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد فنبهه الله تعالى عليه . فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ . عرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه»[3] .

وتختم الآية الكريمة بالإشارة إلى علم الله تعالى عمل كل خلقه . قال تعالى : ﴿**والله يعلم أعمالكم**﴾ ويلاحظ أسلوب الالتفات وهو بطبعه شاد للانتباه ، والتحول من الغائبين إلى ضمير المخاطبين ، وقد مهّد لذلك بمخاطبة المصطفى ﷺ . والملاحظ أن الحديث في أثناء الآية الكريمة موزع بين المخاطبين والغائبين . فالتحوّل إلى ضمير الخطاب في عجز الآية الكريمة ليس جديداً والانتقال ليس كبيراً .

---

(١) اللّسان «لحن» .
(٢) العربية ص ٢٤٣ .
(٣) تفسير القرطبي ٩٠٧٣ .

والملاحظ كذلك أن الآية الكريمة تشير إلى كل الوسائل التي يمكن أن يتم بها الحصول على العلم . فهناك العلم عن طريق رؤية العلامات التي يتّسم بها أولئك المنافقون . حقاً إن رب العزة لم يشأ أن يرى رسوله الكريم تلك العلامات رحمة منه بعباده إلّا أننا نستطيع أن نفهم من السورة الكريمة أن من العلامات التي لا يستطيع المنافقون لها دفعاً امتقاع ألوانهم ، ودوران أعينهم حينما يتوسمون أي خير في صالح المسلمين يكلفون بالعمل من أجله . قال تعالى : **﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾** وهناك العلم عن طريق لحن القول وفلتات اللسان . وقد جاء في الآية الكريمة الإشارة إلى لحن القول ويلحق به فلتات اللسان بطبيعة الحال . قال تعالى : **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** وهناك العمل . وإلى ذلك أشارت الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة : **﴿والله يعلم أعمالكم﴾** ويلاحظ أن في الآية الكريمة تدرجاً دقيقاً لطيفاً من الخفي إلى الواضح فالأوضح . إن العمل هو الأوضح . وإن القول هو الواضح . وإن العلامات ومنها ما هو مؤقت ، هو الخفي ، قال تعالى : **﴿ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾** .

القِسمُ السّابع

ثواب المؤمنين الطّائعين وعقاب الكافرين العاصين

قال تعالى : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبينّ لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم﴾ .

لاحظنا بشأن ختام الآية الكريمة السابقة أن الخطاب في القول ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ موجه إلى كل الخلائق . فبعد أن كان عن المنافقين وإخوانهم الكافرين حديث مستفيض ، وبعد أن تم التحول إلى المصطفى ﷺ بخاصة في الآية الأخيرة في القسم ، بأن رب العزة لو شاء أن يري المصطفى ﷺ المنافقين بعلاماتهم التي لا تفارقهم ما داموا منافقين لفعل ، جاءت هذه الجزئية التي تخاطب الناس كافة ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ والتي هيأت لتحول أولى آيات القسم الأخيرة في السورة لأن تخاطب المسلمين لله رب العالمين بخاصة . قال تعالى : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ .

لقد شاءت العناية الإلهية أن يرتبط بالحياة الدنيا الكثير من المشقات التي يكاد ينوء بها كاهل الإنسان . وقد نصّت على هذه الحقيقة سورة البلد[1] . قال

(١) الآيات ١ ـ ٤ .

تعالى : ﴿**لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ . ولا يكاد يسلم من هذه المعاناة أحد . كما شاءت العناية الإلهية أن يكون نصيب المؤمن من البلاء على قدر حظه من الإيمان . فبذلك أفصح المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى حينما نص على أن أكثر الناس بلاء رسل الله تعالى ثم الأمثل فالأمثل بمعنى الأفضل فالأفضل[1] وكثير هي الآيات القرآنية التي خاطبت المسلمين بأنهم محط الابتلاء من الله تعالى بقصد أن تعلم علم ظهور حقيقة إيمانهم . جاء في سورة آل عمران خطاباً للمؤمنين وقد أصابهم القرح يوم أحد قوله تعالى[2] : ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ . وجاء في سورة البقرة المدنية في حثّ المؤمنين على الصبر والصلاة والجهاد وفي إشعارهم بأنهم محل ابتلاء قوله تعالى[3] : ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾ . وإن الآية الكريمة الأولى في القسم السابع من سورة محمد عليه الصّلاة والسلام تأخذ بسبب من هذا الاختبار لتمييز المؤمنين ومعرفة درجة إيمانهم . قال تعالى : ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾ .

ويلاحظ أن الآية الكريمة تنص على أن الابتلاء بمعنى الاختبار والفحص سيكون من نصيب المؤمنين ومن نصيب أخبارهم بقصد أن يعلم المجاهدون ، والصابرون من هؤلاء المختبرين .

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل والدارمي والترمذي وابن ماجة.
(٢) سورة عمران ١٤٢ .
(٣) سورة البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧ .

ومن مظاهر ابتلاء المؤمنين في ضوء عناية سورة محمد عليه الصّلاة والسلام بالجهاد في سبيل الله تعالى وبقتال الكفّار، ما يرتبط بالجهاد في سبيل الله من قتل وإثخان وأذى وإعداد للعدة من أجل الجهاد في سبيله جلّ وعلا. ومن أوضح الأدلة على أن الجهاد في سبيل الله تعالى من أهم مظاهر ابتلاء الله تعالى للمؤمنين هو أن السياق ابتدأ بالنص على أن العلم بالمجاهدين من المؤمنين أول أهداف الابتلاء. ومن هنا يتبين قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى بعامة، وقيمة قتال الكافرين بصفة خاصة. والمعروف أن السورة الكريمة قد نصّت على القتال حتى إن من أسمائها سورة القتال. قال تعالى: **﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة. فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم، طاعة وقول معروف. فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾**.

فالمطلوب من المؤمنين في جهادهم في سبيل الله وقتال الكافرين أن يطيعوا. وسنتبين أن هذا القسم سيأمر المؤمنين بطاعة الله وطاعة الرسول وذلك في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾** والمطلوب من المؤمنين أن يصدقوا الله تعالى ما عاهدوه عليه. وقد أشارت الآية الكريمة التي نحن بصددها إلى ذلك حينما نصّت على أن الهدف من الابتلاء بعد العلم بالمجاهدين في سبيل الله تعالى العلم بالصابرين. ومن هنا يتبين أن من أهم متعلقات الجهاد في سبيل الله تعالى الصبر. وقد نصّت سورة آل عمران على ذلك في حثّها المؤمنين على أن يصبروا وأن يصابروا الأعداء بأن يكونوا أكثر صبراً منهم في القتال لأنهم يجاهدون في سبيل الله تعالى، ولأنهم يرجون منه جل وعلا ما لا يرجو الكافرون. قال تعالى[1]: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾**.

---

(١) سورة آل عمران ٢٠٠، وانظر الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

وهكذا يتبيّن أنه ليس من سمات المؤمنين أن يكونوا غير صابرين وقادرين على مواصلة القتال . وليس من سمات المؤمنين أن يكون أعداؤهم أكثر صبراً منهم على القتال . وإن الآية الكريمة تنصّ على أن إبتلاء الله تعالى للمؤمنين بقصد أن يعلم المجاهدون والصابرون .

ومعروف أن علم الله تعالى ليس للزمن به علاقة مطلقاً فكل ما سيحدث سابق إلى علمه جلّ وعلا الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وبذلك يكون معنى القول «حتى نعلم» حتى نعلم علم ظهور . لأن رب العزة إنما يجازي الناس بأعمالهم وليس بسابق علمه جل وعلا . يقول القرطبي[1] : «وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة . لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة» . وقال ابن عباس : حتى نعلم حتى نميز . وقال علي رضي الله عنه : حتى نعلم ، حتى نرى[2] . ومعنى نبلو أخباركم نختبرها ونظهرها . وللزمخشري اجتهاد لطيف في ذلك . يقول[3] : «أخباركم ، ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم . ليعلم حسنها من قبيحها لأن الخبر على حسب المخبر عنه إن حسناً فحسن وإن قبيحاً فقبيح» .

ولا يخفى أن العلم بالمجاهدين والصابرين يخرج في أثناء طريق الجهاد أو في أوله كلاً من المنافقين وأهل الشك والحيرة في دينهم . قال تعالى : **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾** .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا الله**

---

(١) تفسير القرطبي ٦٠٧٤.

(٢) تفسير القرطبي ٦٠٧٤.

(٣) تفسير القرطبي ص ٦٠٧٣.

شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ . تبينا أنها تتحدث عن الكافرين من زاوية أخرى تضيف الجديد من المعلومات والصفات عن هؤلاء الكافرين . وأول ما يلاحظ هو أن ثمة صفة جديدة تضاف في حق الكافرين بأنهم شاقوا الرسول محمداً ﷺ بمعنى أنهم حاربوه وآذوه من بعد ما علموا أنه نبي مبعوث ورسول مرسل[1] . فمعنى هذا أن الآية الكريمة تتحدث عن مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المسلمين والكافرين فهؤلاء الكافرون الآن يدخلون في حروب فعلية عنيفة تستهدف استئصال شأفة المسلمين وقلع شجرة الإسلام من جذورها .

ولو أننا التفتنا إلى الصفات التي خلعتها السورة الكريمة من قبل على كل من الكافرين والمنافقين لتبيّنا أن الحديث عن كل من الفريقين لم يشر إلى مرحلة الصراع العنيف هذه بعد . فكفّار مكة كفروا بتوحيد الله تعالى وصدوا عن سبيله بعد انصرافهم عن الرسول الكريم والقرآن الحكيم وأفسدوا في الأرض وقطعوا ارحامهم . والمنافقون بطبعهم يطعنون من الخلف وقد كان حديث السورة الكريمة عنهم من زاوية الأقوال التي لأكثرها نصيب موفور من السر ومن لحن القول ومن زاوية الأفعال التي هي أبعد ما تكون عن المواجهة الفعلية وأقرب إلى الطعن من الخلف والعمل في الظلام .

وبهذا يتبيّن أن الآية الكريمة حينما تتحدث عن الصراع العلني بين الكافرين والمؤمنين هي تشير إلى مرحلة جديدة لم يعرض لها السياق من قبل بهذا الوضوح . وبهذا نحن بصدد تحول في السياق إلى طور جديد يمثل قمة الصراع القتالي بين الفريقين . وهذا النوع من صراع المواجهة ليس من طبيعة المنافقين الجبناء بطبعهم ، والذين يطعنون من الخلف كما هو معروف ، على

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٣ .

الرغم من أن الهدى قد تبينّ لكل من الفريقين الجادين في القضاء على الإسلام .

ولو أننا عقدنا مقارنة بين الآية الكريمة وبين أقرب الآيات السابقة عليها شبهاً من حيث الصياغة . والتي تنطبق على المنافقين وعلى إخوانهم الكافرين وهو قوله تعالى : ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبينّ لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾ لتبينّ أن حديثها يتعلق بوسوسة كل من النفس الأمارة بالسوء وبالشيطان الرجيم . وفي ضوء ذلك هم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله تعالى ما أحبوا واتبعوا ما أسخط الله تعالى . أما الآية الكريمة التي نحن بصددها فإن للعمل الإيجابي الجاد فيها أكبر نصيب . فاستحق هؤلاء الكافرون أن تكون أعمالهم ضد الإسلام وبالاً عليهم وأن تكون الأعمال الطيبة التي قاموا بها من قرى ضيف وفك عان وإغاثة ملهوف وما إلى ذلك هباء منثوراً .

وهكذا يتبينّ الزاوية الجديدة التي تنظر خلالها الآية الكريمة ، خاصة وأننا سبق أن عرفنا أن آخر آيات القسم السابق التي تتحدث عن المنافقين ﴿**ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم**﴾ تعتبر موطئة للحديث في هذا القسم عن عمل هؤلاء الكفّار الإجرامي ضد الإسلام إذ أنها تتدرج في حديثها من خفي وسائل التعبير إلى واضحها فأوضحها من الملامح والسمات إلى لحن القول إلى الأعمال .

ولا ينتهي الجديد من الزوايا التي تنظر خلالها الآية الكريمة عندما أشرنا إليه حتى الآن فإن هناك زاوية أخرى غاية في الأهمية تعتبر موطئة لزاوية أخرى جديدة ستعرض لها آية تالية من زاوية موت هؤلاء الكفار ومغادرتهم لهذه الحياة الدنيا ملعونين . أما هذه الزاوية فهي الجمع بوضوح غير مسبوق في آية واحدة بين قمة العمل السيء ضد الرسول الكريم وبين قمة الفشل الذريع للقوم الكافرين بإرادة الله تعالى مالك الملك ذي الجلال والإكرام قال تعالى : ﴿**إن**

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ .

بل إن الأمر لا يقف عند هذا الحد فإن حديث الآية الكريمة في هذا الأمر كان من الجهة التي أفهمت أن مشاقة الرسول الكريم إنما هي مشاقة لله تعالى وأن عصيان الرسول ومخالفته عصيان لله تعالى ومخالفة له . وقد قال تعالى في سورة الأنفال[1] عن هؤلاء الكافرين : ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ فلنتدبر التحول في الآية الكريمة من مشاقة الكافرين للرسول ، إلى كونهم لن يضرّوا الله شيئاً . فلنتدبر المنزلة العالية الرفيعة للرسول الكريم حيث قد جعل رب العزة حرب الرسول الكريم حرباً له جلّ وعلا وما الذي ينتظر أن يكون نصيباً للكافرين في حربهم لله تعالى ؟ الجواب ببساطة في قوله تعالى : ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ . وانظر إلى لفظة «شيئاً» التي تظهر الكافرين أتفه خلق الله تعالى .

ولعلنا لاحظنا أن الآية الكريمة تتحدث عن خط سير الكافرين وعن ثمرة هذا السير لا بل عن ثمرة أعمالهم الأخرى الطيبة . إن الخسران حليفهم دائماً . أما عن ثمرة خط سيرهم في عملهم ضد الإسلام فإنه الخسران ، لأن هذه هي النتيجة الطبيعية لحرب الله تعالى وحرب رسوله . وأما عن ثمرة أعمالهم الأخرى الطيبة فإنه الخسران لأنهم كفروا بالله تعالى وصدوا عن سبيله وأشركوا معه جل وعلا سواه . إن الحديث عن الكافرين قرب ختام السورة الكريمة وقد جنوا من جراء أعمالهم أسوأ العواقب ، أو قد كادوا يجنون إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات آخر فرصة تتمثل فيما بقي لهم في الحياة الدنيا من فترة قصيرة قبل أن يغادروها ، يمكن أن يفهم منه في ضوء منهج القرآن الكريم التربوي الهادف إلى إرشاد المؤمنين وتبشيرهم وتنبيه الكافرين وتحذيرهم . إن الحديث يصح أن يتجه إلى الفريق المقابل ، المؤمنين كعادة القرآن الكريم الذي

---

(١) اية ١٣ .

جاء في وصفه بأنه متشابه مثان بمعنى أنه يتحدث في موضوعات متشابهة وعن الشيء وضده، والمعنى وخلافه، والصفة وعكسها. ونحن حينما نتبيّـن أنَّ الآيتين الكريمتين التاليتين تتحدث أولاهما عن المؤمنين من زاوية وصف السبيل التي وصلوا إليها بعد جهد ، في مقابل الثمرة التي ضيع الكافرون ، وتتحدث ثانيتهما عن الكافرين ، وقد فوتوا آخر الفرص حيث إنهم قد ماتوا وهم كفّار ، نكون قد أدركنا شيئاً من أسلوب القرآن المجيد المعجز الذي يقلب الكلام على وجوهه المختلفة ، وكأننا بصدد موجات متتابعة من بحر معاني الذكر الحكيم ، تذكرنا بتتابع موجات البحر المتلاطم أو النهر المتدفق ، أو بتتابع قطرات الماء من المزن ، حيث يملأ على التوالي الفراغ الذي تتركه أول الأمر القطرات حتى تغطي الأرض كلها بالماء العذب الفرات الذي يحتاج فقط لتلك التربة الخصبة التي تنتفع به كي تنبت من كل زوج بهيج . وإن آيات الذكر الحكيم النازلة من السماء ، كماء المزن ، بحاجة إلى تلك القلوب غير ذات الأقفال، حاجة ماء المزن إلى التربة الخصبة. إنَّ التربة الخصبة المؤمنون الذين يتحول إليهم الحديث حالاً. وإن التربة الجدبة الكافرون الذين سيعود إليهم الحديث والذين هم بحاجة إلى مجاهدة من قبل المؤمنين المتقين. وهذه المعاني هي التي تدور حولها الآيات التالية:

وقبل أن نتحوّل إلى الآية الكريمة التالية نحن نود أن نقف عند جملة شاقوا التي قال علماء التجويد إن مدها من النوع المثقل الكلمي . إنا نود أن نكرر هنا ما سبق أن تبيّنا في دراساتنا السابقة من كون اشتمال جملة أو عبارة في ثناياها على المقطع الصوتي الطويل الذي يتكوّن من حركة فسكونين يعتبر معجزة صوتية إذ المعروف عند علماء موسيقى الكلام أن هذا المقطع الصوتي الطويل لا يجيء إلاّ في نهاية كلام صوتي يسكت عنده . فالمعروف في مجال الشعر أن ثمة ثلاثة مقاطع أشرنا إلى الطويل منها . وها نحن أولاء نشير إلى الاثنين الباقيين ، القصير وهو عبارة عن حركة . والمتوسط وهو عبارة عن حركة

فسكون . وبهذا يتبيّن أن المقطع يجب أن يبدأ بحركة مع ملاحظة أن هذه الحركة ذاتها يمكن أن يتكون منها مقطع أعني القصير . والمعروف أيضاً أن المقطع الطويل لا يصحّ أن يجيء في الشعر في ثنايا الكلام . ولكن يجيء في نهاية الشطر أو البيت أي في نهاية كلام يوقف عنده . وحينما نتبين أن القرآن الكريم الذي يتمثل فيه قمة الجمال الصوتي الذي يطيقه كلام أقرب إلى النثر من قربه لأي شيء آخر ، يكون معنى هذا أن القرآن يضرب عرض الحائط بتلك النظرية الصوتية . ويكون معنى هذا أننا بصدد دليل جديد بكون القرآن الكريم فيه من ناحية تلاؤم الأصوات خير ما في كل من الشعر والنثر . إن من خير ما في الشعر الجمال الصوتي ولكنه الصوت المقيد . والقرآن الكريم فيه قمة الجمال الصوتي غير المقيد أي الحر وهذه الحرية من خير ما يوجد في الكلام النثري وهذا هو الرمز للجملة ﴿**وشاقوا الرسول**﴾ .

على طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام العروضيين أولاً :

ــ ــ ٥٥ ــ ٥ ــ ــ ٥ ــ

على طريقة المقاطع ثانياً : ــ ٥٩ ــ ٥ ــ

وليس بخاف أن المعنى هو الذي اقتضى وجود هذا المقطع الصوتي الطويل في ثنايا الكلام الغاية في قمة الجمال الصوتي . فقد لاحظنا أن جملة شاقوا تضيف جديداً لم يسبق للسورة الكريمة أن جاءت به بهذه الدرجة من القوة . وحينما يكون هنالك تحليق بالصوت لأجل المد فانقضاض على حرف مشدد شديد الانفجار يكون معنى ذلك التعاون الكامل بين المعنى والمبنى كما يقولون . ولو أننا ألقينا نظرة على استعمال هذا المقطع الطويل في النوعين من علم التجويد المد الكلمي المثقل والمخفف لتبين أن المواطن كلها موطن جد وحزم وعنف . من ذلك قوله تعالى[1] : ﴿**الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة**﴾ . وقوله تعالى[2] : ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى**﴾ . وقوله تعالى :

---

(١) سورة الحاقة ١ ـ ٣.

(٢) سورة النازعات ٣٤.

﴿فإذا جاءت الصاخة﴾(1) . وقوله تعالى(2) : **﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾** . وقوله تعالى(3) : **﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾** .

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن الطريق التي ينبغي أن يستمر في سلوكها المؤمنون والثمرة الناضجة التي ينبغي ألّا يفرطوا فيها . قال تعالى خطاباً للمؤمنين : **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾** .

وأول ما يلفت الانتباه بشأن عرض الآية الكريمة الرائع لمعانيها المتدرج نزولاً أنها تبدأ من القمة التي وصلت إليها الآية السابقة في عرضها الرائع لمعانيها المتدرجة صعوداً . وتفسير ذلك أن الآية الكريمة السابقة التي تتحدث عن الكافرين بصدهم عن سبيل الله تتحول إلى تصوير موقفهم من خير خلق الله تعالى فإلى خذلان الله تعالى لهم. أما الآية الكريمة التي نحن بصددها والتي تتحدث عن المؤمنين في المقابل فإنها تأمر هؤلاء المؤمنين بأن يطيعوا الله تعالى وأن يطيعوا رسوله وتنصحهم بألا يبطلوا أعمالهم.

وإذا كنا تبينّا بشأن الآية السابقة أنها تقرر خسران الكافرين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وقلنا إن الآية الكريمة بالإضافة إلى أمرها للمؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله بأن يحافظوا على الثمرة اليانعة التي حصلوا عليها بعون من الله تعالى وتوفيق كيلا يكون نصيبهم لا سمح الله شبيهاً بنصيب الكافرين ، فإنّا نود أن نوضح أن تلك المحافظة على الثمرة اليانعة إنما تكون بطاعة الله وطاعة رسوله في كل الأوامر وكل النواهي . حقاً إن القول في الآية الكريمة : **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾** ينبغي أن يفهم

---

(1) سورة عبس آية ٣٣.
(2) سورة الأنعام ١٤٣ - ١٤٤.
(3) سورة يونس آية ٩١.

منه الطاعة الكاملة بشأن الأوامر والنواهي معاً . ولكن يبدو أن هذا المعنى الشامل لمفهوم الطاعة كان بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بحاجة إلى أن يفهموه على حقيقته ومن أجل ذلك كان النهي عن الذنوب في الآية الكريمة في القول خطاباً للمؤمنين ولا تبطلوا أعمالكم «عن أبي العالية كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرّ مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت : ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن حذيفة : فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن ابن عمر : كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلّا مقبولاً حتى نزل : ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، حتى نزل : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . فكففنا عن القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها»(١) .

ومع أن هذه الآية الكريمة نزلت مبينة جانباً مهماً كان بحاجة لأن يعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فإنها إضافة إلى ذلك تخاطب كل المؤمنين في كل زمان ومكان بأن عليهم أن يطيعوا الرسول الكريم وألّا يبطلوا أعمالهم بالذنوب مهما كانت صغيرة . ولذلك جاء عن قتادة في معنى الآية الكريمة : «من استطاع منكم ألّا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل شيء فليفعل ولا قوة إلّا بالله فان الخير ينسخ الشر وإن الشر ينسخ الخير . وإن ملاك الأعمال خواتيمها»(٢) .

ومن أهم ما يلفت الانتباه في الآية الكريمة أن الأمر بطاعة الرسول الكريم قد عطف على الأمر بطاعة الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ . وليس وراء هذا المستوى من رفع للذكر وإعلاء للشأن وراء. إن مثل هذه الآية الكريمة تضع سنة المصطفى ﷺ في المكان اللائق حقاً. وقد قال المصطفى ﷺ مخاطباً المسلمين في حجة

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٤ وانظر ابن كثير ٤ ـ ١٨١ .ـ
(٢) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣٩.

حجة الوداع[1] : «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً . أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه» . قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ .

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم**﴾ . ويلاحظ أن الآية الكريمة تتحدث عن الكافرين من زوايا عدة ، من حيث كونهم كافرين وصدوا عن سبيل الله تعالى . وهاتان الصفتان قد نصّت عليهما السورة الكريمة أكثر من مرة مما هو دليل على أنهما صفتان لاصقتان بالكافرين . أن يجحدوا توحيد الله تعالى وأن يصدوا الآخرين عن الإسلام ، الدين الذي رضي الله تعالى لعباده بكل وسائل الترهيب والترغيب : كما تتحدث الآية عن الكافرين من زاوية جديدة هي كونهم قد ماتوا وهم كفّار وقد جحدوا توحيد الله تعالى ونعمه جلّ وعلا وآلاءه .

والملاحظ أن الآيـة الكريمة استعملت الواو عطفاً للصد عن سبيل الله على الكفر بينما استعملت حرف العطف «ثم» بشأن الموت مما هو دليل على أنه كان لدى هؤلاء الكافرين فسحة من الوقت كافية لأن يقلبوا الأمور على وجوهها المختلفة ويختاروا أحسنها وهو سبيل الرشد كي يتخذوه سبيلاً ولكنهم كذبوا بآيات الله تعالى وكانوا عنها غافلين حتى أدركهم الموت وهم على صفة الكفر والعياذ بالله تعالى وما ارتبط بها من خصال سيئة . وهذه الفسحة من الزمن التي أساء الكافرون ملأها دليلاً على إصرارهم على الكفر والعناد تنقلنا إلى المعنى ذاته الذي أشار إليه قوله تعالى من سورة فاطر[2] : ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي**

---

(1) السيرة النبوية ٣ ـ ٦٠٤.

(2) الآية ٣٦، ٣٧.

كنا نعمل . أوَلـم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ .

وإذا كان حرف العطف «ثم» يوحي بأنه قد سبق الموت فاصل زمني لم يحسن الكافرون الانتفاع به كعادتهم تجاه كل خير فإن حرف العطف «الواو» بشأنه قوله تعالى : **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾** يوحي بأنه يكاد يكون ثمة اتصال كامل وتلاحم بين الكفر والصد عن سبيل الله . فإذا كان الكافرون يكرهون الخير لأنفسهم أو على أقل تقدير يجهلون ما فيه خيرهم . فمن باب أولى أن يكونوا جاهلين بما فيه خير غيرهم . ولهذا نتبين في ثلاثة مواضع في السورة الكريمة الجمع بين الكفر والصد عن سبيل الله في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي الآية الكريمة الأولى . والآية الكريمة الثانية والثلاثين .

وحينما نتبين أن الحديث عن موت الكافرين اقترن به صفة واحدة هي صفة الكفر فذلك دليل على أن الكفر هو أساس البلاء . إذ يرتبط به الصد عن سبيل الله تعالى . وحينما نتبيّن ان الآية الكريمة تنصّ على أن الله سبحانه وتعالى لن يغفر لهؤلاء الذين ماتوا وهم كفّار ونعرف أن ثمة ذنباً واحداً لا يغفره الله تعالى ويخلد بسببه العباد في النار وهو الإشراك مع الله تعالى غيره . على نحو ما جاء في قوله تعالى من سورة النساء[1] : **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾** وقوله تعالى من سورة النساء[2] كذلك : **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** . نستطيع أن نفهم بداهة أن من أهم متعلقات الكفر الإشراك مع الله تعالى غيره . وقد عرفنا أن هذا الذنب لا يغفره الله تعالى بنص القرآن الكريم .

---

(١) آية ٤٨ .
(٢) آية ١١٦ .

في ضوء ما سبق نستطيع أن نفهم أن الكافرين وقد ماتوا كانوا في أسوأ حال يمكن أن يخطر ببال بشر . إنه الإشراك مع الله غيره ، وبما أن الكافرين قد ماتوا فعلاً فمن حقنا أن نتهيأ للعلم بأن الحديث في السورة الكريمة عن هؤلاء الكافرين من جانب الحياة الدنيا قد انتهى . وهذا هو الذي حصل تماماً . فإن الحديث لا يلبث أن يتحول في القسم الثامن إلى المؤمنين المتقين المجاهدين مرشداً لهم ومنبهاً ومحذراً . فإلى القسم الثامن .

القِسمُ الثامِن

حثّ على الجهاد وإنذارُ المتثاقلين بالاستبدال بهم غيرهم

قال تعالى: ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم. إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم. أن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم. ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء. وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾.

لاحظنا أن الآيات الكريمة في القسم السابق تتحدث عن الكافرين والمؤمنين. وقد استدعت طبيعة العنف الذي اتسمت به تلك الفترات الزمنية بسبب الصراع العنيف بين المؤمنين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى ويلحق بهم المنافقون إخوانهم أن تبدأ السورة الكريمة بداية تميل إلى العنف وظل العنف يلازمها حتى ليخيل إلينا بسبب الحديث المتنقل المتنوع المزمجر عن هذه الفئات الثلاث إننا أمام جيوش متلاحمة متقاتلة فعلاً حتى إذا حصل التنوع في الفاصلة وتحولت هاء ممدودة بعد أن كانت ميماً ساكنة خيل إلينا أننا أمام سيوف مصلتة يشعّ منها الموت يلوّح بها المقاتلون في الهواء استعداداً لاستئناف الجولة.

أما وأن المنافقين مقهورون ذليلون بطبعهم وأن الكافرين كما صورتهم

السورة الكريمة في حديثها عن مراحل حياتهم قد ماتوا وأصبحوا من أصحاب القبور، فمعنى ذلك أن الفئة المؤمنة المجاهدة في سبيل الله هي التي تحتاج إلى أن يخلص لها الحديث الذي يرشدها إلى أقوم سبيل في جهاد هؤلاء الكافرين والمنافقين، ويأخذ بأيديها بعون من الله تعالى وتوفيق إلى مدارج النصر والرقي والفلاح. وهذا الحديث الخالص عن المؤمنين من هذه الزوايا يحقق ثمرة المنهج التربوي القرآني الذي يهيء المؤمنين وقتذاك للأخذ بيد الإنسانية إلى طريق الهدى والفلاح. أما وقد ثبت أن هناك فئة من الكفار على غرار كفار مكة لا ينفع معهم الدعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن بل على العكس من ذلك هم لا يزدادون بالإحسان إلا تمادياً في الضلال والبغي والاستكبار. فمعنى هذا أن الفئة المؤمنة المجاهدة في سبيل الله تعالى بحاجة إلى أن يرسم لها الطريق الذي تسير فيه حينما تصادف حتماً في عمر الإسلام الطويل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تلك الفئة من الناس التي لا يكبح من جماحها إلا القتال تحت راية الجهاد في سبيل الله تعالى.

ويلاحظ أن القسم الثاني من السورة الكريمة يتحدث عن جهاد الكافرين بل عن ضرب رقابهم فثمة ترابط معنوي واضح بين صدر السورة الكريمة وعجزها.

وفيما يتصل بسورة محمد عليه الصَّلاة والسلام أو سورة القتال، هي تخص بالحديث المؤمنين ثمرة منهج التربية القرآنية الفريد في بابه القادر على إرضاء كل فكر نير وعقل حصيف بفصوص حكمه وإشباع كل نفس نقية من كل شائبة سليمة من كل التواء نزيهة من كل سوء للقصد بتدفق معانيه وجلال مبانيه وحلاوة جرسه. وإذا كان القسم السالف السابع يتكون من أربع آيات يتوزع فيه الحديث بالتساوي ويتنوع بين المؤمنين والكافرين بقصد أن يبدو الإيمان بسبب القدرة على المقارنة بين الفريقين أبيض ناصع البياض. والكفر أسود حالك السواد. فإن هذا القسم الثامن يتكون من أربع آيات كذلك.

ولكن الحديث في هذا القسم خاص بالمؤمنين الذين يرشدهم إلى الطريقة المثلى في جهادهم للكافرين والمنافقين أعداء الدين فمع الآية الكريمة الأولى. قال تعالى: ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾.

بشأن هذه الآية الكريمة نستطيع أن نقول إنها تبين للمسلمين الحال التي ينبغي أن يكونوا عليها دائماً وأبداً. ويلاحظ أن الآية الكريمة تخاطب المسلمين في وقت لم تكن الدولة الإسلامية فيه بعد قد وصلت إلى المدى الذي وصلت إليه في عهد المصطفى ﷺ بعد ذلك فضلاً عن العهود التالية. ومع ذلك فالقرآن الكريم يعين المقام الذي ينبغي أن تكون فيه الأمة الإسلامية والمستوى الرفيع الذي يجب أن تتسنمه عن طريق الجهاد في سبيل الله تعالى في كافة مجالات الحياة. وحينما فهم المسلمون هذه الآية الكريمة وأمثالها على حقيقتها انطوت تحت أقدامهم الأرض. فهذه الدولة الإسلامية التي أسسها المصطفى ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المنورة كانت حدودها بضعة كيلومترات مربعة فقط. وما لبثت هذه الدولة بعد مضي زهاء عشر سنوات أن امتدت حدودها فيما يشبه الانفجار التوسعي حيث زادت هذه الحدود عن المليون ميل مربع.

وقد يقول قائل إن مثل هذا النصر العجيب كان من خصائص المصطفى ﷺ. فالمعروف أن إحدى الخصال الخمس التي خص بها المصطفى ﷺ كما جاء في الحديث الشريف أنه نصر بالرعب مسيرة شهر. فلنتحول إلى العصور التالية. في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد الأمويين كي نتبين أن المسلمين في زهاء ثلث قرن استطاعوا أن يفتحوا زهاء ثلث العالم المعروف آنذاك. ومثل هذه السرعة في الانسياح لها ليس لها نظير قبل ولا بعد. لدرجة أن من المفكرين غير المسلمين وهم لا يكادون يفهمون السر الكامن في

الإيمان وقدرته العجيبة على أن يجعل المستحيل ممكناً، من يذهب إلى القول: إما أن تكون الأرض آنذاك غير الأرض الآن بمعنى أنها كانت آنذاك صغيرة أو أن الأرض ذاتها كانت تطوى تحت أقدام المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى. إن مثل هذا القول يعكس دهشة هؤلاء المفكرين للانسياح الإسلامي العجيب، لأنه ليس له نظير قبل ولا بعد كما قلنا.

وليس المهم فقط هو الانسياح العسكري مجرداً، إنما المهم كذلك بل الأهم هو عمق الآثار التي ارتبطت بهذا الفتح الإسلامي لدى كل الشعوب التي انتهى إليها هذا الفتح بحيث إنها رضيت بسعادة واعتزاز وفخر أن تحتضن الدين الإسلامي وتتبنى الحضارة الإسلامية واللغة العربية لأنها لغة القرآن الحكيم وحديث أشرف الأنبياء والمرسلين. وأي شعوب هذه التي رضيت أن تذوب مع المسلمين الفاتحين في بوتقة واحدة عن رضا وسعادة وفخر.؟ إنها شعوب نبيلة ذات معدن كريم. إنها الشعوب التي رفضت بإباء وشمم زهاء ألف عام قبل الإسلام أن تذوب في اليونان والرومان والفرس. رغم لجوء كل أولئك إلى جميع وسائل الترغيب والترهيب التي لا يعرف المسلمون الفاتحون شيئاً منها. إن المسلمين نجحوا حيث أخفق الآخرون لأن الإسلام دين إنساني في حق البشرية كلها ولأنه دين الأخوة في حق أتباعه. ولما كان المسلمون الفاتحون مطبقين لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وبذلك صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه فقد صدقهم الله تعالى وعده في مثل قوله تعالى عز من قائل[1]: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾.

---

(١) سورة النور آية ٥٥.

ومن نعم الله تعالى علينا نحن المسلمين أن كل الخصائص التي جعلت المسلمين سادة الدنيا قروناً عدة موجودة أمام أعيننا وبين أيدينا وتحت تصرفنا وفي مقدمة هذه الخصائص القرآن الكريم، كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية والحديث النبوي الشريف أو السنة النبوية المطهرة. أما القرآن الكريم فقد تكفل رب العزة بحفظه إلى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها قال عز من قائل [1]: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾. وأما السنة النبوية المطهرة فيكفي أن يقال في هذا الصدد إنها السيرة الوحيدة الكاملة التاريخية العلمية فيكفي أن يقال إن بين أيدينا ما لا يقل عن مائة ألف حديث تشتمل على أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته. وقد ميز العلماء الصحيح من غيره بحيث إننا نستطيع أن نطمئن إلى أننا على علم أكيد بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياته ﷺ ، ويعتبر ذلك من مظاهر الإعجاز القرآني الذي نص بصريح اللفظ على أن الرسول الكريم هو الأسوة الحسنة. وكي يتسنى ذلك ينبغي أن تكون السيرة العطرة كاملة موثقة وقد شاءت العناية الإلهية أن تكون السيرة العطرة كذلك مصداقاً لقوله تعالى في محكم كتابه: [2] ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾.

فما هي الصفات التي تريد الآية الكريمة للمؤمنين أن يكونوا متحلين بها، وما هي المعلومات التي ينبغي أن يكونوا على علم تام بها؟ قال تعالى: ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾.

فما معنى القول ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ علماً بأن معنى الوهن الضعف؟ معناه كونوا أقوياء أعزة على الكافرين. وهذا النهي عن الوهن بمعنى الضعف والجبن والاسترخاء والاستخذاء والذي يفهم منه الأمر بأن يكون المؤمنون غاية في القوة

---

(١) سورة الحجر آية ٩.
(٢) سورة الأحزاب آية ٢١.

العسكرية والقدرة القتالية يذكرنا بقوله تعالى في سورة الأنفال[1]: خطاباً للمؤمنين: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾.

وما معنى القول: ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ عطفاً على النهي عن الوهن؟ معناه أن المسلمين لله رب العالمين الأذلة على المؤمنين[2] الأعزة على الكافرين، ليسوا هم الذين يدعون إلى السلم ويسعون إلى الصلح فضلاً عن أن يكونوا متهالكين عليه لاهثين وراءه. إنما الذي يدعو إلى السلم ويسعى إليه ويحرص عليه هم الكافرون بعد أن يكون المسلمون لله رب العالمين وقد أصر الكافرون على كفرهم وعلى حرب المسلمين قد أذاقوهم صنوف العذاب في ميادين الشرف والبطولة والكرامة، ميادين القتال وضرب الرقاب، ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته جل وعلا. بعد أن يكون المسلمون لله رب العالمين قد طبقوا تعاليم القرآن الكريم في مثل قوله من هذه السورة الكريمة: ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾. بعد أن يكون المسلمون لله رب العالمين قد حققوا قول الله تعالى فيهم في سورة الأحزاب[3]: ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾.

---

(١) آية ٦٠.

(٢) يلاحظ أن الآية الرابعة والخمسين من سورة المائدة تستعمل حرف الجر الدال على الاستعلاء «أذلة على المؤمنين».

(٣) آية ٢٣.

«وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي »[1] «والجمهور، إلى السلم بفتح السين. والحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر بكسرها »[2] قال قتادة: لا تكونوا أولى الطائفتين ضرعت لصاحبتها[3].

وما معنى القول ﴿ وأنتم الأعلون ﴾. معناه إنكم أيها المسلمون لله رب العالمين المؤمنون المتقون المجاهدون في سبيل الله تعالى أنتم الأعلى منزلة عند الله تعالى وينبغي أن تكونوا كذلك في أعين أنفسكم. إنكم لستم عالين مكاناً ومكانة فقط، إنما أنتم الأعلون على سائر خلق الله تعالى من غير المسلمين لله رب العالمين، لماذا؟ لأنكم في جهادكم في سبيل الله تعالى وحده لا شريك له تألمون في سبيله جل وعلا، ولأنكم ترجون منه تعالى ما لا يرجو الكافرون. أنتم ترجون إحدى الحسنيين النصر من الله العزيز الحكيم أو الشهادة في سبيل الله تعالى، وكان حقاً على الله تعالى نصركم أيها المؤمنون وتأييدكم، فقد أخذ جل وعلا العهد بذلك على نفسه فينبغي أن تقدروا هذه النعمة حق قدرها بأن تكونوا في مستوى هذه النعمة والمسئولية، أن تكونوا الأعلين في أعماق أنفسكم وفي قرارات أعينكم وينبغي أن ترتقوا إلى مستوى ذلك الشرف الرفيع الذي حباكم الله تعالى به. ويتحقق ذلك بعونه تعالى بألا تألوا جهداً في قتال أعداء الله تعالى وأعداء رسوله من أجل رفع راية الإسلام راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وقد جاء في هذه السورة الكريمة خطاباً للمؤمنين المجاهدين القول: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ إنكم أيها المؤمنون بحاجة إلى أن تستشعروا في أعماق أنفسكم هذا العلو والسمو والرفعة على أعدائكم بل أعلى درجات كل ذلك لأنكم إنما تجاهدون في سبيل الله تعالى. أما الكافرون فإنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت وهوى النفس الأمارة

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٤.
(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٨٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤٠ وتفسير القرطبي ٦٠٧٦ والكشاف ٣ ـ ١٣٤.

بالسوء والله سبحانه وتعالى يأمركم بأن تقاتلوا أولياء الشيطان . وقد بين لكم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

وحينما يستشعر المؤمنون في أعماقهم ذلك العلو ويعدون للأمر عدته، ويلبسون لكل حالة لبوسها بعون من الله تعالى وتوفيق سيجمع لهم إلى علو النفس على الكافرين وسمو الهمة لأنهم يجاهدون في سبيل الله تعالى علو المنزلة في الدنيا وبذلك يصح لهم في جهادهم خير الدنيا إضافة إلى خير الآخرة. يقول الطبري [1]: «لا تضعفوا عنهم وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم».

وما معنى القول: «والله معكم»؟ معناه أن الله سبحانه وتعالى سيؤيد دائماً وأبداً المؤمنين المتقين المجاهدين في سبيله جل وعلا مرشداً لهم إلى أقوم سبيل آخذاً بأيديهم في كل حروبهم مع أعدائهم إلى النصر المبين. إنه إذا كان هذا القول السابق في الآية الكريمة خطاباً للمؤمنين ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ يفهم منه المؤمنون أن الله تعالى مؤيدهم بنصره لأنهم يجاهدون في سبيله ويرجون منه النصر والتأييد فإن هذا القول بعد ذلك مباشرة: ﴿ **والله معكم** ﴾ يعتبر قوة لذلك الشعور بالاستعلاء من قبل المؤمنين لأننا الآن أمام تعبير صريح في القرآن الكريم بأن رب العزة مع المؤمنين. وهل يعقل أن يهزم أمام أعداء الله تعالى جيش للمجاهدين في سبيل الله تعالى المتقين المؤمنين له ذلك الحظ من التأييد الإلهي؟ إن النصر بعون من الله تعالى وتوفيق يجب أن يكون حليف ذلك الجيش الذي تلك صفته. وإذا كانت النتيجة وقتاً من الأوقات غير ذلك، فليثق المسلمون لله رب العالمين أن ثمة خللاً من نوع ما في صفوفهم، إما من الناحية المعنوية أو المادية أو من ناحيتها معاً. وإن على المؤمنين أن يعدوا لأعداء الله تعالى ما استطاعوا من قوة وأن يحسنوا استخدامها، وأن تكون كل حركاتهم

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤٠.

وسكناتهم جهاداً في سبيل الله تعالى. وحينما يتحقق كل ذلك فليثق المؤمنون في النصر.

إن على المؤمنين دائماً وأبداً أن يصلحوا من أحوالهم وأن يعودوا إلى بارئهم يؤمنون به ويعملون الصالحات ويجاهدون في سبيله جل وعلا حق جهاده وإن رحمة الله قريب من المحسنين. وإن نصر الله تعالى لآت بإذنه عز وجل. يقول الزمخشري (١): «وأنتم الأعلون: أي الأغلبون الأقهرون».

وما معنى القول: ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ معناه ولن ينقصكم ثواب أعمالكم (٢) وجاء في اللسان (٢): «يقول: لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً» يقال: وتره حقه وماله. نقصه إياه (٣). وقد جاء في حديث النبي ﷺ: من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله أي نقص أهله وماله وبقي فرداً» (٣). ويقال: وترته إذا نقصته. فكأنك جعلته وتراً بعد أن كان كثيراً (٤). والوتر والوتر بكسر الواو وبفتحها الفرد أو ما لم يتشفع من العدد (٣). أي لم يكن اثنين. وقيل: هو من الوتر بفتح الواو وكسرها بمعنى الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي، فشبه ما يلحق من فاتته صلاة العصر بمن قتل حميمه أو سلب أهله وماله (٣).

وليس هناك ما يمنع أن يكون القول: ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ من الوتر بمعنى الإفراد أو بمعنى الجناية كما مر بنا. ولكننا حينما ننظر إلى لفظة ما من زاوية تطور الدلالة إذ المعروف أن اللغة كائن حي يجري عليه ما يجري على الأحياء من تطور فتوة وشباب وعجز وشيخوخة وأحياناً الوفاة، ولو إلى حين، فإنا نستطيع أن نقول بصفة عامة إن اللفظة ترتبط بالمحسوس أولاً.. ثم تتحول منه إلى المعنوي بسبب قرينة.

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٤.

(٢) و(٣) انظر اللسان «وتر» وقد جاءت هذه الجزئية في موضع واحد في اللسان طبعة بيروت بوضع «لم» موضع «لن» فلتصحح.

ولو أننا نظرنا إلى لفظة وتر لتبينا أنها تدل أول الأمر على المفرد وليس على الشفع أي المثنى أو الرقم الزوجي. وبما أن من يقتل له قريب من أب أو ابن أو أخ ومن إلى ذلك كأنه عاد بعد أن كان معه آخر، كأنه قد عاد وتراً بعد أن كان شفعاً. لذلك ارتبط بهذا التحول من الحسن إلى السيء لفقد الحميم أو المال الجناية والألم والثأر. وبهذا أصبحت لفظة الوتر تدل على الفرد وعلى الجناية وفي ضوء تطور الدلالة على هذا النحو الذي نظن، يمكن أن نقول إن معنى القول: ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ لن ينقصكم ثواب أعمالكم إن رب العزة لن يترككم وحيدين من ثواب أعمالكم الصالحة التي قمتم بها ابتغاء مرضاته جل وعلا. «عن مجاهد في قوله: ولن يتركم أعمالكم قال: لن ينقصكم»[1] ويمكن أن نقول إن المعنى أن رب العزة سيعطيكم ثواب أعمالكم كاملاً غير منقوص لأن في إنقاص الثواب إيلاماً ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[2]. عن ابن عباس يقول: لن يظلمكم أجور أعمالكم[3] «وعن قتادة: ولن يتركم أعمالكم أي لن يظلمكم أعمالكم»[4]. ويبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أن المعنى مرتبط بالوتر بمعنى الإفراد بأكثر من ارتباطه بالوتر بمعنى الألم وما في معناه. والله تعالى أعلم بالمراد. وبناء على ما قلنا يكون المعنى أن الله سبحانه وتعالى لن ينقص المؤمنين المتقين المجاهدين في سبيله شيئاً من ثواب أعمالهم التي قاموا بها وهم يريدون وجه ربهم الأعلى. وإليك ما جاء في القرآن الكريم في تعداد بعض الأعمال التي يقوم بها المجاهدون في سبيله سواء أكانت صغيرة أم كبيرة هينة أم جليلة والثواب الذي أعده الله تعالى لهؤلاء المجاهدين في سبيله. جاء في سورة براءة[5]: قوله تعالى ﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب**

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤٠.
(٢) سورة الكهف ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤٠.
(٤) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤٠.
(٥) الآية ١٢٠ ـ ١٢١.

أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾.

وليس بخافٍ أن مفهوم العبادة في الإسلام واسع إلى أبعد درجات الاتساع بحيث إن كل عمل صالح يقوم به المرء وهو يريد به وجه ربه الأعلى يعتبر داخلاً في مفهومها في الإسلام بما في ذلك لقمة الطعام التي يضعها الزوج في فم زوجته وهو يريد بذلك وجه ربه الأعلى. فكيف بهؤلاء المجاهدين في سبيل الله تعالى. وتأبى رحمة الله تعالى إلا أن تثيب هؤلاء المجاهدين في سبيله على كل الأعمال الصالحة التي قاموا بها بما في ذلك قطعهم للأودية متجهين إلى ميادين القتال ميادين الشرف والرجولة والبطولة.

وليس بخافٍ العز الذي هو من نصيب المجاهدين في سبيله جل وعلا في الدنيا والآخرة على السواء. وقد لقن القرآن الكريم المؤمنين التعبير عن هذا العز في الحياتين بأنه الحسنيان النصر على الأعداء وفي ذلك عز الدنيا لأنه عين رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم وعز الآخرة لأجل الثواب الجزيل الذي هو من نصيب الشهداء. جاء في سورة براءة (١) قوله تعالى: ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾ ومن هو المؤمن الذي لا يغبط الشهيد على جزيل ثواب الله تعالى له؟ جاء في سورة آل عمران (٢): قوله تعالى: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما**

---

(١) آية ٥٢.

(٢) الآيات ١٦٩ ـ ١٧١.

آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾.

وهكذا يتبين واجب المؤمنين في كل زمان ومكان أن يعدوا لعدو الله تعالى وعدوهم ما استطاعوا من قوة. وقد قال المصطفى ﷺ وهو على المنبر في تفسير معنى القوة: ألا إن القوة الرمي ألا أن القوة الرمى (١). وإن لفظة القوة عامة وإن لفظة الرمي عامة كذلك فهي تشمل الرمي بكل الوسائل القتالية المستخدمة. على المسلمين أن يعملوا جاهدين في كل الميادين سباقين للزمن ولأمم الأرض قاطبة. وكي يكونوا كما أراد الله تعالى لهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تعالى رباً وبالقرآن الكريم إماماً ودستوراً وبالرسول الكريم داعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

ولا يليق بالمسلمين أن يجبنوا عن العمل خوف أن يخطئوا وأن يعيرهم الآخرون بالخطأ! إن الذي لا يخطىء هو الذي لا يعمل. والذي لا يعمل هو غير الواثق من نفسه ومن قدرته ومن كفاءته. أما الذي يعمل وهو يريد بكل أعماله وجه ربه الأعلى فإن الله تعالى معه دائماً وأبداً. ومن الجائز أن يصاحب الصواب الكثير خطأ قليل. وبما أن المؤمن مجتهد في سبيل الوصول إلى الصواب فهو وإن أخطأ له على خطئه أجر. كما جاء في الحديث الشريف وهو أجر الاجتهاد. نسأل الله تعالى ألا يحرمنا من أحد الأجرين على أقل تقدير، أجر الاجتهاد. وإن كنا نطمع في الأجرين معاً أجر الاجتهاد وأجر الإصابة فيه. كما نسأله جل وعلا أن يوفقنا لكل ما يحب ويرضى. وأن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل إنه على ما يشاء قدير والحمد لله رب العالمين.

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية: **﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن**

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ ـ ٣٢١.

تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ . استطعنا للوهلة الأولى أن نقول: إن كل جزئية من جزئياتها الثلاث تتكون من معنيين أو تتضمن فكرتين اثنتين. أما الجزئية الأولى التي تتحدث عن الحياة الدنيا فإنها تصفها بأنها لعب ولهو. فاللعب هو المعنى الأول واللهو هو المعنى الثاني. وأما الجزئية الثانية التي يتكون منها فعل الشرط فإنها تتطلب من المؤمنين المتقين المجاهدين في سبيل الله تعالى أمرين في مقابل الأمرين السابقين غير المرغوب فيهما، واللذين هما الصفة الحقيقية للحياة الدنيا. الأمر الأول أو المعنى الأول الإيمان. والثاني التقوى. وأما الجزئية الثالثة التي يتكون منها جواب الشرط وجزاؤه فإنها تشير إلى أمرين أو معنيين. الأول هو أن الله تعالى سيؤتي المؤمنين المتقين أجورهم. والثاني هو أنه جل وعلا لا يسألهم أموالهم.

وإذا ألقينا نظرة أخرى على هذه الجزئيات الثلاث من زاوية المعاني التي تشتمل عليها استطعنا أن نقول بشأنها أشياء أخرى. فلو تأملنا القول: ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ . لاستطعنا أن نتبين أن رب العزة يحصر صفة الحياة الدنيا في اللعب واللهو. ومعنى هذا أن الحياة الدنيا لا ينبغي أن تكون في يقين المسلم أكثر من طريق للعبور إلى الحياة الأخرى الأبقى دار الجزاء. فعليه أن يعمل جاهداً على أن يكون عمله فيها بعيداً كل البعد عن الصفتين السيئتين الأساسيتين في حق الحياة الدنيا اللعب واللهو.

وفي إمكاننا أن نفهم اللعب من زاوية المقارنة بينه وبين اللهو . فالمعروف أن اللهو يرتبط به بالضرورة سيء الأفعال . ومن أقوى الأدلة على ذلك أن سورة لقمان الكريمة تصف الأساطير التي كان يثقفها النضر بن الحارث عن الفرس، ويحدث بها الناس بعد أن يغادر المصطفى ﷺ مكانه الذي يدعو فيه الناس بمكة إلى صراط العزيز الحميد ويعظهم تصف تلك الأساطير بأنها لهو

الحديث. قال تعالى (1): ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم** ﴾.

وفي ضوء جمع الآية الكريمة بين اللعب واللهو وتقديمها للعب. وفي ضوء فهم اللهو بأنه سيء الأفعال فإنا نستطيع أن نقول عن اللهو بأنه الأعمال السيئة التي يقوم بها البشر عمداً، والتي لا تخفى عنهم صفتها تلك شرعاً أو عقلاً. وأن نقول عن اللعب بأنه الأعمال التي لها نصيب من الجد ومن الحق ولكنها لا يراد بها وجه الله تعالى، بل يراد بها الاستمتاع بالحياة الدنيا التي يتخذها البعض نهاية المطاف ويعتبرها غاية المنى والتي تذهل البعض الآخر عن الهدف الصحيح الذي ينبغي له أن يتمثل بوضوح بأن يريد من كل تلك الأعمال وجه ربه الأعلى وبذلك تدخل تلك الأعمال في مفهوم العبادة الواسع في الإسلام.

إن الحياة الدنيا حينما ينفصل فيها العمل الجاد، أي عمل، عن كونه يراد به وجه الله تعالى فإنه في حقيقة الأمر نوع من اللعب. وسبق أن عرفنا أن العمل حينما يبتعد عن الجد وعن الحق والخير يكون لهواً وبما أن الأعمال كلها التي لا يراد بها وجه الله تعالى لا تخلو من كونها جداً أو لهواً. فإن النوع الأول تصفه الآية الكريمة بأنه لعب وإن النوع الثاني تصفه الآية الكريمة بأنه لهو.

وفي مقابل هذين النوعين من العمل اللذين لا يراد بهما وجه الله تعالى ثمة نوعان من العمل يراد بهما وجه الله تعالى. وعلى غرار تدرج النوعين السابقين السيئين من مستوى سيء إلى مستوى آخر أشد سوءاً فإن ثمة تدرجاً مماثلاً بشأن النوعين من العمل الطيبين من المستوى الحسن إلى المستوى الأحسن. أما المستوى الحسن فهو الإيمان وأما المستوى الأحسن فهو التقوى. قال تعالى خطاباً للمؤمنين ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا** ﴾.

---

(1) سورة لقمان ٦ ، ٧ وانظر هنا تفسير الجلالين .

وإذا كنا نعرف أن ثمة مراحل ثلاثاً متداخلة متدرجة يعبر عنها بالإسلام والإيمان والإحسان، فإنا نستطيع في ضوء اتجاه الآية الكريمة الأولى إلى الأعلى وهو الطابع الذي توصف به أن نقول: إن التقوى مرتبطة بدرجة الإحسان تمام الارتباط. ونحن حينما نفهم معنى كل من الإحسان والتقوى نستطيع أن نتبين هذا الرباط الوثيق بينهما. فالمصطفى ﷺ يصف الإحسان ويعرفه بأن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1]. ويمكن أن تفسر التقوى بأنها ذلك الرقيب الداخلي الحي، الساكن في الضمير اليقظ، والإحساس المرهف، والنفس المطمئنة، والذي يلوح للإنسان المؤمن حق الإيمان، شخوصاً حية تحيط به، ترقبه وتدون عليه كل صغيرة وكبيرة. وبذلك هو يستحي من الله تعالى أن يأتي في الخفاء ما يستحيي أن يأتي به في العلن، لأنه على يقين تام من أن رب العزة لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وهكذا يتبين أن المطلوب من الإنسان المسلم لله رب العالمين أن يكون مؤمناً تقياً وهذا المؤمن التقي أبعد ما يكون عن لعب الحياة ولهوها، بالمعنى الذي سبق أن فهمنا. أما اللهو فإنه بعون من الله وتوفيق بعيد عنه كل البعد أساساً. وأما اللعب فإنه بعون من الله تعالى وتوفيق بعيد عنه كل البعد أساساً كذلك! لأنه يريد وجه ربه الأعلى بكل أعماله وهي أعمال كلها مما يرضى عنه الله تعالى ويرضى عنه رسوله الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾.

وانظر بعد ذلك إلى العدل والكرم الإلهيين بشأن جواب الشرط وما عطف عليه، اللذين يتحدثان من زاويتين اثنتين عن نصيب المؤمنين من المتقين وحظهم ﴿ **يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾. وواضح أن القول: ﴿ **يؤتكم أجوركم** ﴾ بمعنى إعطاء رب العزة المؤمنين المتقين ثواب أعمالهم،

---

(١) صحيح البخاري ١ ــ ٢٠ .

يعتبر مظهراً من مظاهر العدل الإلهي. إن ثواب المؤمنين المتقين مقابل الأعمال الطيبة التي قاموا بها ابتغاء وجه ربهم الأعلى يعتبر حقاً خالصاً لهم ينزله القرآن الكريم منزلة الأجر الذي من حق صاحبه أن يأخذه فضلاً عن أن يطالب به. وليس بخافٍ حث الإسلام على أن يؤتى أصحاب الأعمال حالاً أجور من استأجروهم. فهذا المصطفى ﷺ يأمر بأن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه. وإن رب العزة منًّا منه وفضلاً ينزل الأعمال الطيبة الحسنة التي أمر بها عباده وأرشدهم إلى أن يريدوا بها وجهه الكريم منزلة العمل الذي يقوم به من استؤجر. فهو بناء على ذلك يستحق أجره. وبشأن تلك الأعمال الصالحة هو يستحق عليها الثواب الجزيل. وقد قال عز من قائل[1]: ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾.

بل إن رحمة الله تعالى وفضله وكرمه لا يقف شيء منها عند حد. فلذا كان العدل الإلهي ينزل الأعمال الصالحة منزلة الأعمال المطلوب من استؤجر أن يقوم بها وبالتالي هو يستحق في مقابل ذلك أجرته وهي في الغالب مال يدفع فإن الفضل الإلهي ينبه هؤلاء المسلمين لله رب العالمين إلى أن أموالهم التي أعطاهم الله تعالى إياها فأصبحت بذلك حقاً خالصاً لهم لا يسألهم جل وعلا إياها.

ونحن نود أن نثبت عدداً من الأمور المتعلقة بشقي هذه الجزئية الكريمة الأخيرة في الآية. فبالإضافة إلى العدل والفضل الواضحين في الجزئية مما يعتبر تدرجاً ملحوظاً في الجزئية بشأن الجزئيتين السابقتين فإن في الإمكان أن نلفت النظر إلى أن فضل رب العزة على خلقه يتجلى في كونه جل وعلا يؤتيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وواسع كرمه. أما فيما يتصل بأموالهم التي تفضل رب العزة بإيتائهم إياها، والتي تعتبر عماد أجورهم، فإن رب العزة لا يسألهم

---

(١) سورة الأنعام ١٦٠ .

إياها. مع ملاحظة أن السياق يستعمل بشأنها ذات الضمير الذي استعمله بشأن الأجور. فأصبح المال كالأجر حقاً خالصاً لهم. ويلاحظ كذلك أن القرآن الكريم صرح في غير ما موضع بأن المال مال الله تعالى، وقد جعل الخلق مستخلفين فيه. قال تعالى(١): ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾ وقال تعالى(٢): ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾. قال ابن بري: «سألته الشيء بمعنى استعطيته إياه»(٣).

ولعلك لاحظت أنه فيما يتصل بالإعطاء فإن الفعل هو الذي يرتبط به. أي التنفيذ الفوري وفي أي صور الكلام؟ في أقواها في هيئة جواب الشرط، فالله تعالى يؤتي العباد أجورهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. أما حينما تحول الحديث إلى الأخذ منهم فإن الجزئية الكريمة تستعمل أسلوب النفي مع ملاحظة أن شقها الثاني الآن يكتفي بنفي مجرد السؤال ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾.

إن مجرد سؤالهم أموالهم وهو أهون أنواع السبل للأخذ من الآخرين تنفيه الجزئية الكريمة فكيف بما وراء السؤال أو القول. وهكذا يلاحظ أن الحديث فيما يتصل بالإعطاء منه جل وعلا كان متعلقاً بالفعل الحقيقي. بينما كان فيما يتصل بالأخذ منهم في هيئة القول وليس ذلك فحسب بل هو القول المنفي. ومعروف أن رب العزة لا يسأل عباده كل أموالهم إنما يسألهم من الذّهب والفضّة مثلاً، ربع العشر فقط في هيئة الزكاة التي تعطى للفقراء. وبذلك يعود الخير على كل من الفقير والغني إذ يتخلص هذا من الحسد وذاك من الجشع. وليس بخافٍ أن الثواب الجزيل لمن آتى الزكاة والصدقة داخل في القول ﴿ **يؤتكم أجوركم** ﴾

---

(١) سورة النور ٣٣ .

(٢) سورة الحديد ٧ .

(٣) اللسان «سأل» .

يقول الطبري[1] : «ولا يسألكم ربكم أموالكم ولكنه يكلفكم توحيده وخلع ما سواه من الأنداد وإفراد الألوهة والطاعة له » ويقول أبو حيان [2]: «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو. وهو تحقير لأثر الدنيا أي فلا تهنوا في الجهاد، وأخبر عنها بذلك باعتبار ما يختص بها من ذلك. وأما ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك » قال تعالى: ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾.

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية ﴿ **إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾ استطعنا أن نفهم بداهة أن الحديث يعني أساساً المؤمنين المتقين الذين جاءت إليهم البشارة بهاتين الصفتين في الآية الكريمة السابقة. إن السؤال بشأن الأموال التي ختمت الآية الكريمة السابقة بالحديث عنها ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ إذا كان قد نفى من ذي قبل، فإن الآية الكريمة هنا تبين ما الذي سيحدث فيما لو فرض أن تم سؤال المؤمنين المتقين كل أموالهم، وفيما لو فرض أن تم سؤالهم بإلحاح. وهكذا نلاحظ أن السؤال في هذه الآية الكريمة يضيف جديداً إلى ما في الآية السابقة وهو الإلحاح كما يضع جديداً في مقابل هذا الجديد. وهذا الجديد المقابل هو خروج الأضغان ﴿ **إن يسألكموها فيحفكم** ﴾ والمعروف أن الإحفاء في المسألة مثل الإلحاف سواء وهو الإلحاح. يقال أحفاه ألح عليه في المسألة وأحفى السؤال ردده. وأحفى فلان فلاناً إذا برح به في الإلحاف عليه أو سأله فأكثر عليه في الطلب[3] «الفراء في قوله عز وجل: ﴿ **إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا** ﴾ أي يجهدكم» وأحفيت الرجل إذا أجهدته. وأحفاه برح به في الإلحاح عليه أو سأله فأكثر عليه في الطلب. وأحفى السؤال كذلك. وفي حديث أنس أنهم سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه. أي

(١) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٤١ .
(٢) البحر المحيط ٨ ــ ٨٥ .
(٣) انظر اللسان «حفا» .

استقصوا في السؤال. وفي حديث السواك لزمت السواك حتى كدت أحفي فمي أي استقصي على أسناني فأذهبها بالسواك»[1]. «ويقال» : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. وأحفى شاربه إذا استأصله»[2].

أما ما الذي سيحدث من المؤمنين المتقين فيما لو فرض أن سألهم رب العزة كل أموالهم فهو البخل. وأما ما الذي سيحدث فيما لو فرض إن كان ثمة إلحاح في السؤال وإلحاف في المسألة وإحفاء في الطلب فهو خروج الأضغان بمعنى الأحقاد. إنها أضغان وأحقاد كفيلة بأن يخرجها الإلحاح في طلب المال المحبوب من النفس الإنسانية والذي يعتبر هو والبنون زينة الحياة الدنيا. يقول الزمخشري[3]: «ويخرج أضغانكم أي تضطغنون على رسول الله ﷺ وتضيق صدوركم لذلك وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم» وهذا الذي خيف أن يعتري المؤمنين هو الذي تقرب بواسطته محمد بن مسلمة إلى كعب ابن الأشرف وتوصل به إلى قتله حين قال له: إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال»[4] «قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه»[5].

ويلاحظ أن ثمة تدرجاً إلى الأعلى في الآية الكريمة من حيث طبيعة السؤال «إن يسألكموها فيحفكم» ويقابل ذلك تدرج إلى الأعلى من حيث رد الفعل . إن البخل من نصيب السؤال وإن خروج الأضغان من نصيب الإلحاح فيه . ولعلك لاحظت بالإضافة إلى التدرج المنطقي في عرض المعاني أن الآية

---

(١) اللسان «حفا» .
(٢)، الكشاف ٣ ــ ١٣٤ .
(٣) الكشاف ٣ ــ ١٣٤ .
(٤) البحر المحيط ٨ ــ ٨٦ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤ ــ ١٨٢ وانظر مقتل كعب بن الأشرف في السيرة النبوية ٢ ــ ٥١ .

الكريمة تنقسم قسمين . القسم الأول يتعلق بالسؤال نفسه . والقسم الثاني يتعلق برد الفعل الموازي لطبيعة السؤال . وليس بخاف أن هذا النوع من السؤال فضلاً عن الإلحاح فيه ، مرغوب عنه وبالتالي فإن ما نصّت عليه الآية الكريمة على أنه سيكون رد فعل لهما يعتبر أمراً مرغوباً عنه مع اختلاف درجتي عدم الرغبة تبعاً لاختلاف نصيب الصفتين من السوء . إن البخل أقل سوءاً من اشتمال النفوس على الضغائن . وبالتالي لا يليق بالمؤمن أن يكون بخيلاً فضلاً عن أن يكون ذا ضغن . وإذا كانت الآية الكريمة تنقسم قسمين عادلين ، فإن كل قسم ينقسم بدوره قسمين عادلين كذلك . والذي أضاف إلى الجمال الصوتي جمالاً معنوياً عرض الآيات الكريمة المنطقي المتدرج للمعاني بحيث تلوح وكأنها تتجه حيث القوة صعداً لأن الجامع بين هذه الأمور الأربعة مجتمعة الرغبة عنها . إن ثمة رغبة عن فعل الشرط وما عطف عليه تقتضي الرغبة عن جواب الشرط وما عطف عليه قال تعالى : **﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾** .

ونتحوّل إلى الآية الكريمة الأخيرة في السورة . قال تعالى : **﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** . والآية الكريمة تخاطب المسلمين المؤمنين المتقين بأنهم يدعون لينفقوا في سبيل الله تعالى شيئاً من أموالهم ومنهم من تسخو نفسه وتجود ومنهم من تبخل نفسه وتشح . وبما أن الجزاء من جنس العمل . فالآية لكريمة تبين بصريح العبارة أن من يبخل على الإنفاق فإنما يبخل في حقيقة الأمر عن نفسه لا عن الآخرين . لأنه بخل على نفسه بالأجر الجزيل من الله تعالى . وحينما يأمرنا رب العزة بالإنفاق فذلك من مظاهر اختباره عز وجل لنا فيما آتانا . أننفق فيما جعلنا مستخلفين فيه أم نبخل . أننفق من ماله عز وجل الذي آتانا أم نمتنع عن الإنفاق وعن تنفيذ أوامره سبحانه وتعالى وهو الغني عنا . وتختم السورة

الكريمة بتهديد المؤمنين بأنهم إن لم يقوموا بما يجب عليهم وهم الذين حملوا أمانة الإسلام ، فإن الله تعالى سيستبدل بهم قوماً آخرين مؤمنين متقين أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيله جل وعلا ولا يخافون لومة لائم . وبعد هذه النظرة الأولى نحن بحاجة إلى نظرة أخرى تالية .

فمع الجزئية الكريمة الأولى التي تخاطب المؤمنين وتدعوهم للإنفـاق في سبيله تعالى **﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾** ها للتنبيه ، وأنتم اسم ضمير لجماعة المخاطبين والمراد به المؤمنون . وأولاء اسم إشارة «وأدخلت ها في موضعين لأن العرب إذا أرادت التقريب جعلت اسم الضمير بين هاء التنبيه وبين اسم الإشارة لأن التقريب جواب الكلام فربما أعادت «ها» وربما اجتزأت بالأولى[1] . ومن المواضع التي حذفت فيها «ها» الثانية قوله تعالى من آل عمران[2] : **﴿ها أنتم أولاء ، تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾** ومن المواضع على مجيء «ها» في الموضعين قوله تعالى في سورة آل عمران كذلك[3] **﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** . وكذلك الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة محمد عليه السلام . ومعنى القول **﴿ها أنتم هؤلاء﴾** ها أنتم يا هؤلاء[4]: ها أنتم أيها الناس هؤلاء[5] وها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون[6].

وانظر إلى جملة تدعون التي تستعمل بدلاً من تسئلون التي سبق وأن

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٦ ــ ٤١ .
(٢) آية ١١٩ .
(٣) آية ٦٦ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٢٦ ــ ٤١ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٠٧٨ .

جاءت مرتين . إنها دعوة موجهة إلى هؤلاء المسلمين المؤمنين وليست سؤالاً أو إلحاحاً فيه . وليس بخاف أن الدعوة توجه عادة إلى ذوي الأقدار . وتشاء إرادة الله تعالى أن تضع الإنسان المسلم لله رب العالمين بخاصة في هذه المنزلة الرفيعة العالية . وليس بخاف كذلك أن هذه الدعوة تعتمد بعد الزكاة المفروضة على أريحية هذا الإنسان الذي كرّمه ربه ومن عليه بالكثير من النعم وخاطبه في طريقة يحس معها بقيمته الرفيعة العالية وتأمل القول لتنفقوا في سبيل الله . إن النفقة واسعة المعنى جداً ، فهي تشمل كل ما ينفقه الإنسان من زكاة وصدقة ، والجزئية الكريمة تعين هدف الإنفاق . إنه ينبغي أن يكون في سبيل الله تعالى وحده لا شريك له وليس في سبيل أي هدف دنيوي آخر جلّ أو هان .

ومع أن رب العزة الذي آتى الإنسان المال هو الذي يدعوه لينفق في سبيله جل وعلا ، فإن جنس الإنسان القتور بطبعه يبخل أحياناً وتشح نفسه عن الإنفاق من مال الله تعالى الذي آتاه إياه . وإذا كان الإنسان سيثاب حينما ينفق في سبيله جل وعلا من المال الذي استخلفه الله تعالى عليه فإن ذلك معناه أنه حينما يبخل إنما يحرم نفسه من ثواب الله تعالى الجزيل . والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة **﴿فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾** إن الله سبحانه وتعالى قادر دائماً وأبداً على أن ينتصر من أعدائه ولكنه جعل أولياءه وسيلة قدره وقضائه جل وعلا ابتلاء لهم على غرار قوله تعالى في هذه السورة الكريمة من ذي قبل **﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾** .

ومن مظاهر ابتلاء المؤمنين في جهادهم لأعداء الله تعالى وأعداء رسوله الكريم أن يجاهدوا بأموالهم إضافة إلى أنفسهم لأنهم فقراء دائماً وأبداً إلى ثواب الله تعالى . وإذا كان القول : **﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾** يشي بافتقار الخلق لرحمة الله تعالى . فإن الجزئية التالية تضيف جديداً حينما تقرر الحقيقة التي يعرفها أقل خلق الله تعالى معرفة به جل وعلا . قال تعالى : **﴿والله الغني**

وأنتم الفقراء﴾ إن البشر مهما كانوا أغنياء في مجال المادة هم فقيرون إلى رحمة الله تعالى الذي آتاهم ذلك المال الذي أصبحوا بسببه يعتبرون في عداد الأغنياء . وليس بخاف أن القول : **﴿وأنتم الفقراء﴾** يعني كل عباد الله تعالى . إن عليهم أن يعوا هذه الحقيقة جيداً . إنهم هم الفقراء دائماً وأبداً إلى رحمة البر الرحيم . وإن رب العزة حينما يأمرهم بأن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم إنما يريد أن يعطيهم في المقابل الثواب الجزيل الذي هم أفقر خلق الله تعالى إليه . وإن هؤلاء العباد في جهادهم أعداء الله تعالى يعتبرون في عداد جند الله تعالى التي قال عنها في محكم كتابه[1] : **﴿وما يعلم جنود ربك إلّا هو﴾** .

وحينما يصرّ العباد على إساءة فهم التكاليف التي يطالبهم الله تعالى بها ومنها بذل النفس والدم رخيصة في سبيل الله جل وعلا . وحينما يترجم هؤلاء العباد إساءة الفهم تلك إلى إساءة العمل بأن يصدوا عن سبيل الله تعالى ويعرضوا عن الذكر الحكيم وعن سنة أشرف المرسلين يكون معنى ذلك أنهم يستحقون أن يضرب الله تعالى عنهم الذكر صفحاً وأن يقضي عليهم قضاء مبرماً وأن يستبدل بهم قوماً غيرهم ليسوا مثلهم بحال من الأحوال . قال قتادة : «إن توليتم عن كتابي وطاعتي أستبدل قوماً غيركم»[2] . فإذا كان الذين استغنوا عن الله تعالى واستغنى الله تعالى عنهم قد ضعفوا عن احتمال تبعات التكاليف بسبب اللين في طباعهم والخور في عزائمهم واستمرأوا اللعب واللهو ولم تعد آيات الذكر الحكيم وسنة أشرف الأنبياء والمرسلين نافعة في حقهم فاستحقوا أن يبيدوا عن بكرة أبيهم ، فإن الذين خلفوهم بإرادة الله تعالى يختلفون عن السابقين اختلافاً كاملاً ، إنهم باختصار يقفون بشأن الخصائص على طرف النقيض من السابقين المترفين الذين دمرهم الله تعالى تدميراً . وإن

---

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٤١ .

من أهم ما يميزهم أنهم على أتم استعداد لأن يبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيله جل وعلا . وأن تجود أنفسهم بكل ما يملكون من رخيص وغال في سبيل إعلاء كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله . ألسنا بصدد سورة يعتبر القتال والجهاد في سبيل الله تعالى المحور الذي تدور حوله ؟ بلى . إذن أهم ما يختلف فيه اللاحقون عن السابقين استعدادهم لأن يبذلوا أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله تعالى . وبذلك ينطبق في حقهم قوله تعالى من سورة الصف[1] **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾** . إننا في حقيقة الأمر بصدد تهديد ينطبق على المسلمين في كل زمان ومكان حينما يعشقون الحياة الدنيا وينسون صناعة الموت التي كان يحذقها الآباء والأجداد في سبيل الله تعالى في ميادين الشرف والبطولة . إن على المسلمين أن يعودوا إلى القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ . والمعروف أن الإسلام دين الجهاد في سبيل الله تعالى . أما إذا أصرّ المسلمون على توليهم وإفسادهم في الأرض وتقطيعهم أواصر الرحم ووشائج القرابة فمعنى كل هذا أنهم يستحقون أن يستبدل الله تعالى بهم قوماً غيرهم ، من الجائز أن يكونوا قريبين منهم نسباً قرب الأحفاد من الآباء والأجداد ومن الجائز أن يكونوا بعيدين عنهم نسباً بعد صلاح الدين الأيوبي القائد المسلم المظفر الكردي الأصل قاهر الصليبيين عن العرب الذين يعيشون على فتات أمجاد الآباء والأجداد غافلين عن الواجب المقدس عليهم ، إن على المسلمين جميعاً أن يتدبروا الآية الكريمة الأخيرة من سورة محمد عليه الصّلاة والسلام الممثلة للعدل الإلهي الذي لا محاباة فيه لمخلوق . والمسلمون وراء ذلك

---

(١) الآيات ١٠ ــ ١٣ .

مخيرون بين عز عن طريق الجهاد في سبيل الله تعالى وبين ذل لن يرفع عنهم بغير ذلك الجهاد . قال تعالى مخاطباً المسلمين محرضاً على الجهاد في سبيله جل وعلا مهدداً متوعداً **﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** . فهل آن للمسلمين أن يفهموا كل هذه المعاني الجليلة ، وقد ذهب القدس الشريف والكثير من أجزاء العالم الإسلامي ؟ إن لم توقظ مأساة القدس المسلمين فما الذي يوقظهم ؟ إنه لا محاباة في العدل الإلهي فإن لم يستيقظ المسلمون ويعودوا إلى الجهاد يستبدل الله تعالى بهم قوماً آخرين يقظين مؤمنين متقين مجاهدين في سبيل الله تعالى ينطبق في حقهم قوله جل وعلا[1] : **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾** .

صدق الله العظيم

نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل وأن ينير لنا الطريق إنه على كلّ شيءٍ قدير. وصلَّى الله وسلم على رسوله وحبيبه محمد النبي الأمي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة المائدة ٥٤ ـ ٥٦ .

خَاتِمَة